تمهيد

هذه المحاضرات* ليست إلا إضافة يسيرة إلى جهود سابقة لأساتذة جيلنا ، ممن اشتغلوا بالدراسات اللغوية وتركوا لنا ثمار جهودهم السخية مناراً على الطريق .

وهؤلاء ، وآخرون معهم من المستشرقين ، انطلقوا بالبحث اللغوى من حيث انتهت خطوات الذين سبقوهم من علماء السلف[1] .

والشوط الذى قطعه هؤلاء العلماء من قدامى ومحدثين ، قد عبّد الطريق لمن يأتى بعدهم ، بحيث لايبدأ أحدنا خطوة على الدرب ، دون الإفادة من بحوثهم والتزود منها لما هو بسبيل إلى درسه .

وهذا الوضع ، يلقى عليكم عبء الاطلاع على ما قدموه ، قبل أن تمضوا معى فى خطوتى على الطريق . ولا أرانى أشق عليكم بمثل هذا فأنتم عندى أهل له . ولا أراكم تؤثرون أن أمهد لمحاضراتى بتلخيص هذه الكتب العربية ، فما يحل لأستاذ أن يحرم طلابه متعة البذل والمعاناة ، ويجور على حقهم فى أن يستقلوا بالعمل حين تتيسر لهم أدواته ووسائله ، فينفرد بالاتصال بمصادر ومراجع يلخصها لهم ، حين تكون قريبة منهم يصلون إليها ، ويطالعونها فى أصولها غير مبتورة بتلخيص وإيجاز .

وفى مكتبة معهدكم بحوث مطبوعة لعدد من أساتذتنا الذين حاضروا أفواجاً من زملائكم ، فى البحوث اللغوية . ويتصل منها بموضوعنا من قرب ، محاضرات « الأستاذ مصطفى الشهابى » فى : المصطلحات العلمية فى اللغة العربية — ١٩٥٥ .

---

* ألقيت هذه المحاضرات على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٦٩ .

(١) جمع السيوطى قدراً هاماً من آثار لغوى السلف ، فى كتابه (المزهر فى علوم اللغة) . وقد استخلص منه « جورجى زيدان » مادة كتابيه (الفلسفة اللغوية ، واللغة كائن حى) مع إضافة من دراسات اللغويين الغربيين ، فى القرن الماضى .

وفيه دراسة مستوعبة لموقف لغتنا من المصطلحات العلمية فى القديم والحديث.

محاضرات الأستاذ « الدكتور إبراهيم أنيس » فى : مستقبل اللغة العربية المشتركة — ١٩٦٠ . وفيه معالجة حرة . لقضية من أعقد قضايانا اللغوية المعاصرة .

محاضرات « الأستاذ أمين الخولى » فى : مشكلات حياتنا اللغوية — ١٩٦٤.

وقد عالج فيه قضية التطور اللغوى فى المرحلة التى سبقت استقرار العربية على النحو المعروف لنا من القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وهى مرحلة شاقة يوغل قديمها فى عصور غابرة ، وتتوارد عليها مرويات وأقوال متناقضة متدافعة ، تختلف فى أصل اللغة هل كان توقيفيًّا أو بوضع ؟ ثم تختلف فى تقديرها : هل بلغت غاية الكمال منذ عُرفت فى القديم ، أو أن شأنها كان شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى فى خضوعها لقوانين الحياة وسنن التطور ؟ ثم تختلف بعد ذلك فى حرمتها التى أضفاها عليها نزول القرآن الكريم بها ، هل يجب الوقوف بها حيث عرفها عصر المبعث ، أو تساير الزمن مستجيبة لمقتضيات الحياة ؟

وغير بعيد منكم ، فى دور الكتب العربية ، بحوث أخرى قيمة ، تتصل بموضوعنا ، أذكر منها :

« مقدمة لدرس لغة العرب » للشيخ عبد الله العلايلى .

« إحياء النحو » للأستاذ إبراهيم مصطفى

« نحو التيسير » للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى .

« التطور النحوى للغة العربية » للمستشرق برجشتراسر .

ولسنا على أى حال نعرض للبحث من الناحية الموضوعية اللغوية التى وطأها لنا هؤلاء الدارسون . وإنما الذى يعنينا هو النظر فى لغتنا من حيث صلتها الحتمية بالحياة ، والتعرض للقضايا اللغوية التى تواجهنا فى وجودنا المعاصر .

وما قد نعرض له فى هذه المحاضرات ، مما يتصل بماضى حياتنا اللغوية . ليس إلا نظرة تاريخية تتابع سير الحياة بهذه اللغة .

والحق أن الدراسة اللغوية فى أى مجال ، لا تفقد صفة المعاصرة مهما يوغل الدارس فى الماضى البعيد . فلست إذن فى حاجة إلى أن ألتمس مسوِّغاً لوضع « لغتنا والحياة » بين ما نشتغل به من القضايا الحيوية لعصرنا ، إذ يظل موضوع اللغـــة جديداً ما بقيت هذه العربية أداة نطقنا وتفكيرنا ، ولسان قوميتنا ، ووسيلة الثقافة والتعبير عن إنسانيتنا ، واللغة التى تصلنا بتراث أسلافنا وتاريخ أمتنا ، وبها نتفاهم ونلتقى عبر حدود الزمان والمكان .

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل تاريخي

عرف التاريخ شعوب هذا الوطن ، ترفض الاندماج فى كل الغزاة الذين تعاقبوا عليها ، قبل الإسلام ، على مدى ألف عام، من فرس وروم ويونان ووندال .

ثم رآها تستجيب للإسلام عن طواعية ، فما لبثت أن تعربت واندمجت بعناصر شخصياتها القديمة وقومياتها المتعددة ، فى شخصية جامعة وقومية مشتركة .

obeikandl.com

obeikandl.com

اللغة العربية هى اللسان القومى لشعوب الوطن العربى من وادى الرافدين فى قلب الشرق الآسيوى ، إلى وادى النيل وأقطار المغرب الممتدة على طول الشمال الإفريقى إلى ساحل المحيط الأطلسى .

ومهما تختلف اللهجات المحلية لهذه الأقطار ، فإنها لاتعرف غير العربية لسان قومية ، ووسيلة تفاهم مشترك ، وأداة اتصال فكرى عبر الحدود والمسافات .

ومهما يعرف التاريخ من أواصر قربى ونسب وجوار ، كانت بين أقطار هذا الوطن من قديم الزمان ، فالذى لا شك فيه هو أنها بدأت بالإسلام تاريخها المشترك وقوميتها الجامعة ولسانها الموحد .

وهذا يعنى أننا فى مدخلنا التاريخى إلى الموضوع ، نبدأ من حيث بدأت شعوب أمتنا تتعرب ، بعد أن تلقت الإسلام ديناً واعتنقته عقيدة .

غير أنا مع ذلك ، نحتاج إلى لمحة سريعة من عصرما قبل الإسلام ، تضىء لنا حركة التحول الحاسم الذى تم فى القرن الأول للهجرة .

* * *

قبل الإسلام ، خضعت أقطار هذا الوطن نحو ألف عام للحكم الأجنبى ، باستثناء جزيرة العرب التى اعتصمت ببواديها الجُرد ، لا مطمع فيها لغريب .

وتعاقب على شعوبنا الرومانُ والفرس واليونان ، فى أدوار تاريخية واحدة أومتقاربة ، ففرضوا عليها لغاتهم وعقائدهم وقومياتهم وأعرافهم ، ثم مضوا جميعاً . لم يتركوا هنا قومية فارسية أو رومانية أو يونانية . وكل ما خلفوه على المدى الطويل من أثر مادى أو معنوى ، ذاب فى عناصر الشخصية الأصيلة لإنسان المنطقة ، ولم تذب تلك الشخصية قط فى أجنبى أو دخيل .

ثم جاء الإسلام ، فكان التحول الذى لا يعرف التاريخ له مثيلا :

إلى المشرق ، خرج العرب المسلمون من جزيرتهم فاتحين ، فما مضى

ربع قرن على بدء التاريخ الهجرى ، حتى كانت الشام ومصر والعراق قد انتهى تاريخها الرومانى واليونانى والفارسى ، وبدأ تاريخها الإسلامى العربى فكان لقاؤه بقديمها الأصيل الذى صمد نحو ألف عام (٣٣١ ق.م: ٦٤٠م) للغزو الأجنبى ، وأرق الغزاة بثورات يعرفها تاريخنا القديم . ويعطى رصيدها الضخم من الضحايا والثارات والأحقاد .

وعلى ذلك الزمن الطويل . بقيت لغات الغزاة وثقافاتهم وعقائدهم المفروضة بالإكراه . لغة دواوين وثقافة دخيل وعقائد مستعمر ، يرتهن بقاؤها بما يحميها من سلطة الحكام وجبروتهم ، وتواجهها الشعوب بالتحدى الذى يتمثل فى الإصرار على التعامل بلسانها القومى خارج الحدود الرسمية ، وبالرفض الذى يتمثل فى تمسكها بعقائدها وتقاليدها وأعرافها ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . .

ومن عجب أنها ماكادت تستجيب للإسلام ، حتى نبذت كل ماضيها الأجنبى المفروض ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مناضلة عنه ، مشاركة فى حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية التى بلغت أقصى المغرب .

ومن المشرق ، خرجت كتائب الفاتحين تحمل لواء الإسلام إلى أقطار المغرب . وفى هذه الكتائب عرب خُلَّص من عدنان وقحطان ، ومستعربة من العراق والشام ومصر وبرقة ، اتجهوا غربا إلى إفريقية والمغرب الأقصى ، وفيها شعب قوى الشكيمة . دوخ الغزاة وغلب عتاة الأباطرة ودهاة القادة . تتابعت عليه الجيوش الغازية فما استطاعت أن تتجاوز المنطقة الساحلية ، وكأنها كانت تجد فى قربها من البحر المتوسط شعوراً بتأمين هروبها من مصير مقرر محتوم . واعتصمت قبائل الأمازيج فى معاقلها بالجبال والريف والبوادى ، لا تدين لمستعمر ولا تخضع لسلطة أجنبية .

احتل الرومان الشمال الإفريقى بعد سقوط قرطاجنة التى دوخت الإغريق جولات مريرة ما بين عامى (٢٦٤ : ١٤٦ ق. م.) بقيادة هانيبال

وماسينيسا وأسد روبال . وقد دمر الرومان قرطاجنة التى كانت منار حضارة زاهرة امتدت إلى أسبانيا وساحل الأطلسى . وبقى الرومان فى مستعمراتهم على حافة البحر المتوسط نحو ستة قرون (١٤٦ ق م : ٤٣٩ م) فكان احتلالاً عسكرياً واقتصادياً لم يتغلغل فى الروح والفكر ولم ينفذ إلى العقيدة والضمير والوجدان . وشهد العصر الرومانى ثورات وطنية عاتية ، بقيادة باخوس الأول فى المغرب ، ويوغورطا النيوميدى الجزائرى حفيد ماسينيسا ، ثم يوغود وباخوس الثانى الذى حرر الجزائر فى عهد « أكتاف » ثم كاليجولا ، وسابال ، وفرموس الذى سحق جيوش الرومان سنة ٣٦٩ م وأعاد الحكم إلى قومه البربر . حتى جاء الوندال من سواحل البلطيق وبلاد الغال فورثوا الاستعمار الرومانى واحتلوا الشمال الإفريقى نحو قرن ، انهزموا بعده أمام ثوار البربر فى طرابلس بقيادة « أنطالاس » فهدت هزيمتهم للغزو البيزنطى الساحق عام ٥٣٣ م ، فى عهد « الامبراطور جستنيان » وواجه البيزنطيون بدورهم مقاومة عنيفة من بربر المغرب ، خضبت الساحة الشمالية بالدماء . ثم مضى البيزنطيون كما مضى كل الغزاة من قبلهم ، لم يتركوا سوى أطلال تزار ، وبقايا آثار تحدث عن ماض انطوى واندثر .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن ما تركه الاحتلال الرومانى الذى احتل البلاد نحو ستة قرون ، لم يصمد للفتح الإسلامى . وأن اللاتينية التى بدا أنها سادت الشمال الإفريقى زماناً ، صُفِّيت فى القرن الهجرى الأول[١] .

ويقرر الواقع التاريخى ، أن العرب فى المرحلة الأولى للفتح ، لم يجابهوا خطراً ذا بال من ناحية البيزنطيين ، وإنما كانت المواجهة مع زعماء الأمازيج عشاق الحرية المعتزين بشخصيتهم وقوميتهم . وقد شهدت المرحلة الأولى مقاومة عنيفة للعرب من هؤلاء الزعماء ، فى مثل ثورة « كسيلة البربرى » وثورة « الكاهنة »[٢] فلم يكن خضوع البربر سهلا ولا كانت بلادهم غنيمة تلقاها

---

(١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٧٥ ط السلمى بالدار البيضاء .

(٢) « « : « « ص ٨٨ وما بعدها .

العرب من أهلها فى استسلام[١] . ومع ذلك ، لم يلبث التاريخ أن شهد قبائل الأمازيج التى عصيت على الغزاة من كل جنس وملة ، تسير بعد أقل من نصف قرن من الفتح الإسلامى ، تحت لواء دينها الجديد . فتنطلق عبر مضيق جبل طارق إلى أسبانيا فاتحة منتصرة . والجيش الذى عبر المضيق كان بقيادة « طارق بن زياد » المغربى ، فى أكثر من عشرة آلاف من قومه البربر ، وألفين من العرب . تمكن بهم « طارق » من فتح قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية ، ثم كانت الموقعة الحاسمة فى وادى الرطاط بين جيش طارق وجيش لذريق سنة ٩٢ هجرية ، أى بعد نحو نصف قرن من دخول « عقبة بن نافع » إفريقية ، واختطاطه مدينة القيروان أول مدينة إسلامية هناك !

نصف قرن فحسب ، كان كافياً لأن يحول مجرى التاريخ ، ويجعل من الأمازيج الأحرار الأباة البواسل ، جنوداً مجاهدين فى سبيل الإسلام .

وما يزال التاريخ فى حيرة من أمر هذا التحول الفذ الحاسم . وأكثر المؤرخين العرب ، يردونه إلى وحدة الأصل العربى لكل شعوب المنطقة من المشرق والمغرب [٢] دون أن يفسروا لماذا لم تلتق هذه الشعوب الموحدة الأصل ، فى جبهة واحدة ضد الغزاة الذين احتلوا البلاد قروناً ، قبل الإسلام ؟

أما الغربيون ، فلم ينكروا قط ، ما كان بين الشعوب القديمة للمنطقة من صلات جوار وأواصر قربى ، لكن أكثرهم يفصلون الجنس السامى عن الجنس الحامى والآرى لشعوب المنطقة .

وينقل الدكتور مراد كامل : « أن العلماء اتفقوا على أن موطن الشعب السامى فى العصور التاريخية كان شبه الجزيرة العربية . ومنها خرجت الهجرات السامية : الأولى نحو العراق من ابتداء الألف الرابع ق.م وهى

---

(١) اللواء الركن محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب .

(٢) محمد عزة دروزة : تاريخ الجنس العربى — ط بيروت .

الأكدية . والثانية حوالى سنة ألفين قبل الميلاد وهى الكنعانية . والثالثة حوالى سنة ألف وخمسمائة قبل الميلاد وهى الآرامية . ثم الهجرة الرابعة وهى العربية . وتمثل أقوى الهجرات السامية . ونحن نعرف تفاصيلها التاريخية والأسباب التى دعت إليها »[١] .

وغريب منه هذا القول باتفاق العلماء على هذا ، بعد أن صدر الفقرة التى نقلناها عنه آنفاً بما ينقض هذا الاتفاق وينفيه . قال ما نصه :

« ذهب العلماء مذاهب شتى فى المهد الأصلى للساميين فى عصور ما قبل التاريخ . وقد حاول أصحاب كل نظرية أن يأتوا بأدلة تثبت رأيهم : منها جغرافية ومنها لغوية ومنها ما يختص بالجنس ومنها ما فسروا به التوراة . فمن قائل إن مهد الساميين الأصلى بلاد أرمينية ، ومن قائل إنه شمال إفريقية . ومن قائل إنه شبه الجزيرة العربية . ومن قائل إنه ما بين النهرين ، ومن قائل إنه بلاد العموريين فى سوريا »[٢].

وأحسب أنه فيما ذكر بعد ذلك ، من اتفاق العلماء على أن الجزيرة العربية كانت الموطن القديم للساميين ، متأثر بما نشره هنا ، المؤرخ اليهودى « أبو ذؤيب : إسرائيل ولفنسون » الذى كان مدرساً للغات السامية فى الجامعة المصرية (١٩٢٧ : ١٩٢٩) ، ولقد اختلطت اليهودية بالعربية فى أكثر محاضراته ، لطول ماقال بوحدة أصلهما السامى . فما تدرى حين تقرأ كتابه « تاريخ اللغات السامية »[٣] أين الحد الفاصل فى تصوره بين السامية واليهودية ، أو بين العربية والعبرية ! وقد قرر « أن الجزيرة العربية كانت وطنا مشتركاً لجميع الأمم العبرية والكنعانية... » .

وأن « الهجرة الإسرائيلية التى فتحت بلاد فلسطين بعد أن صدرت

---

(١) من تعليقه بهامش صفحة ٢٩ ، من كتاب جرجى زيدان (اللغة العربية كائن حى) .

(٢) المرجع السابق : هامش ص ٢٨ . ط دار الهلال .

(٣) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مطبوعا فى مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، سنة ١٩٢٩ .

من الجزيرة العربية ، كانت سبباً لتقلبات اجتماعية ودينية كثيرة ، كبيرة الأثر فى التاريخ العام ....

وأن انتشار الكنعانيين فى بابل ، بعد أن انتشروا فى سورية وفلسطين ، كان له تأثير عظيم فى حضارة بابل « فقد أدخلوا على البلاد بعض عقائدهم كما كان للغتهم نفوذ كبير فى لغة تلك البلاد . . ولشريعة حمورابى الكنعانى قيمة تاريخية عظيمة فوق قيمتها الحقيقية ، لأنها تمثل لنا عقلية بابل وشومر من ناحية ، وتدل على الروح التى كانت للكنعانيين من ناحية أخرى ، وهى أقدم شريعة فى تاريخ التمدين البشرى » [١].

وترتبط كلمة عبرى بكلمة عربى « ارتباطاً متيناً لأنهما مشتقتان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد » [٢].

« ولأن بنى إسرائيل جاءوا بلغتهم العبرية من الجزيرة العربية ، كانت مميزات الحياة الصحراوية بارزة جدا فى هذه اللغة ، وقد توارث الإسرائيليون هذه المميزات إلى أن استوطنوا فلسطين ، فلم يكونوا يستنكرون على الأدب أن يستعمل التشبيهات الصحراوية والخيال البدوى » [٣] .

والحق أن « إسرائيل ولفنسون » لم يبتدع هذه الأقوال ، فقد سبقه عدد من متعصبى المستشرقين ، إلى مثل ما قاله أو قريب منه . فالمستشرق مرجوليوث ، يذهب إلى « أن الوطن الأصلى لبنى إسرائيل كان ببلاد اليمن » ويلتقط بعض ألفاظ مشتركة فى العبرية والسبئية ، وبعض عادات وأخلاق دينية ، قال إنها متشابهة عند أهل سبأ وبنى إسرائيل [٤] .

---

(١) يصرح ولفنسون بأنه ، فى رده إلى الكنعانيين أعرق حضارة للشرق الأسيوى ، يفترض أن اسم حمورابى مشتق من لفظ عمورابى ، وهو تركيب مزجى معناه كمعنى اللفظ العبرى « الله ربى » وقد وجد اسم الملك عمرى الإسرائيلى فى الخطوط المسمارية يكتب : حمرى ! ص ٢٦ من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٢ : ٣) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) Margolioth : Dir Israeliten zu Mekka, p. 10.

ولمح « دوزى » مثل هذه الملامح المتشابهة بين اليهود وقريش ! . فادعى « أن مكة وعمرانها الوثنى وتقدم قبائلها فى الجاهلية على غيرهم من قبائل العرب ، إنما جاء إليها من بطون شمعونية إسرائيلية [1] ».

وأبو ذؤيب يناقش مثل هذه الأقوال ، فى لهجة المؤرخ المحقق ، ثم لا يلبث أن يمضى إلى أبعد منها وأغرب ، على ما نقلنا آنفاً من كتابه « تاريخ اللغات السامية » .

* * *

وحين نلتمس المسارب الأولى لفكرة السامية ، لغة وجنساً : نجدها خرجت أول ما خرجت من علماء يهود الأندلس فى العصور الوسطى . كانوا أول من ظهر بهذه العلاقة بين الأمم السامية . ثم جاء « شلوتسر » فكان أول مؤرخ غربى استعمل اصطلاح السامية فى بحوثه وتحقيقاته التى نشرها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وقد استخلص هذه التسمية مما جاء فى التوراة (الإصحاح العاشر من سفر التكوين) عن أولاد بنى نوح : سام وحام ويافث ، ومَن ولد لكل منهم بعد الطوفان .

ومن ذلك الحين راجت فكرة تقسيم أصول الجنس البشرى إلى سامية وحامية وآرية . فى دراسات المستشرقين من اللغويين وعلماء الأجناس .

وهى دراسات جادة أعطت الفكرة صبغة محترمة وأقامت عليها عدة بحوث علمية ، لها تقديرها وقيمتها . ونقلها الناقلون منا من حيث انتهت إليه فى البيئة العلمية ، دون نظر إلى وهن الأساس الذى قامت عليه ، حتى صارت من البديهيات التى لاتحتمل مناقشة أو جدلا . وقد حملوها على محمل الحقائق التاريخية والنظريات العلمية ، فكان أن ألقت على جنسنا العربى كل أوزار اليهود وجرائمهم التى ضجت البشرية منها على امتداد الزمان والمكان .

هل يبدو هذا الوقوف عند السامية . بعيداً عن موضوعنا ؟ الواقع أنى أردت أن ألفتكم إلى ماينبغى من حذر فى تلقى ما راج من نظريات

---

(١) Dozy : Relations between Arabs and Israelites.

ودعاوى تلقاها الدارسون منا مسلَّمين ، ثم لم يلبثوا أن تعصبوا لها وتصدوا لترويجها وتأييدها وترسيخها .

وفكرة السامية لو أنها وقفت عند الدراسة العلمية لشعوب المنطقة ، فى التاريخ المعروف جنساً ولغة ، لما كان منها بأس علينا . أما أن توغل الفكرة فى غيابات ما قبل التاريخ وتوجَّه لخدمة غرض بعينه . فذلك ما يرفضه العلم .

وإذا كان يجذبنا إلى السامية أنها ترد شعوبنا إلى أصل واحد ، فينبغى ألا يفوتنا أنها كذلك قد جنت على تاريخنا بمثل هذه الدعاوى المرسلة ، وألقت على أصولنا ظلا يهودياً تنكره دماؤنا التى لو سيطت بدم يهودى ، تزايلن حتى ما يمس دما !

ولست أدرى فى الواقع ، فيم تعلقنا بهذه الفروض التى أُقحمت على مناخنا الفكرى الحديث ، عن رغبة طيبة فى إثبات وحدة شعوبنا من عصر ما قبل التاريخ : فالقول بوحدة أصول ثلاثة للبشر ، عند سام وحام ويافث ، لا يستحق كل هذا الجهد المبذول . إذ ليس بين أبناء نوح الثلاثة وبين أبيهم ، إلا جيل واحد تلتقى عنده كل هذه السلالات التى وزعوا البشرية عليها . فما هو إلا أن نرجع بسام وحام ويافث إلى أبيهم نوح ، حتى تجتمع كل هذه الأجناس فى أب واحد ! .

على كل حال ، لا أقصد من هذه الإشارة إلى السامية ، أن تتجهوا إلى رفض الدراسات العلمية التى أقيمت عليها ، لأنكم إن فعلتم ، وقعتم فيما أحذركم منه ، من التورط فى التسليم بفكرة أو رأى دون نظر أو تأمل ؛ وكرامتكم العقلية ، تفرض عليكم ألا تسلموا عقولكم إلى مايبدو من البديهيات ، وألا تتابعوا تياراً فكرياً دون أن يكون لكم رأى فيه ، بعد تتبع مصدره ومجراه ، وطول التأمل فى البراهين والأدلة التى سيقت لتأييده .

وسترون فيما نعالج من أزمتنا اللغوية ، أنها ما تعقدت إلا بما رسخ فى فكرنا الحديث من دعاوى حُملت على محمل الحقائق العلمية ، وأقحمت على

على وجودنا اللغوى والقومى فسايرناها ، فما لبثت أن رسخت وأخذت صورة البديهات أوالحقائق العلمية .

حسبنا أن نكتفى بالمعروف من تاريخنا : فننتفع بالدراسات التى نظرت فى لغات المنطقة العربية ، وتتبعت ما بينها من صلات ، وأن نتدبر الواقع التاريخى الذى وعى أن أقطار هذا الوطن العربى قد خضعت على مسار الزمن لأحداث تاريخية متماثلة ، وارتبطت بوحدة وجود ومصير ؛ورفضت جميعاً أن تندمج فى الدول التى طرأت عليها واحتلتها نحو ألف عام قبل الإسلام، ثم مضت وكأنها لم تكن هناك .

والتاريخ قد يفسر هذه الظاهرة ، بأن شعوب المنطقة كان بينها تقارب فى المزاج والعقلية ، أثراً للروابط التى قامت على الجوار والقربى والتبادل التجارى والفكرى .

ومع كل هذه الروابط والصلات ، ومع تماثل الأحداث التاريخية لشعوب المنطقة ، كانت هناك قوميات خاصة ، مصرية وفينيقية وبربرية وعربية وفارسية ، بينها حدود قائمة معروفة .

ثم لما جاء الإسلام وترك لها حرية العقيدة ، لم تلبث أن انضوت تحت لوائه ، وبدأت تتعرب من الجيل الأول بعد الفتح .

وامتزجت الدماء بالنسب والمصاهرة والقر ، وانصهرت الأمزجة والعقليات فى شخصية جامعة ، واندمجت العناصر والأجناس فى قومية مشتركة .

* * *

والتاريخ لا يجد تفسيراً لهذا التحول الحاسم ، سوى أن هذه الشعوب آمنت عن عقيدة وأسلمت عن طواعية ، بعد أن أرهقتها محاولات الإكراه على التخلى عن موروث عقائدها وقومياتها وتقاليدها ، وشهدت فترة ما قبل الإسلام اضطهاداً مريراً من السلطات الحاكمة ، لفرض عقائدها ولغاتها وتقاليدها . كان رد الفعل الطبيعى له ، أن واجهته الشعوب بالإصرار

على الرفض ، مدفوعة بالتحدى عن حدس الدفاع عن الذات . فلم يكن التحول انتقالاً من حكم الرومان والفرس واليونان إلى حكم العرب ، وإنما كان استجابة باهرة لعقيدة اقتنعوا بها . وقد وجدت الضمائر التى ظلت بمعزل عن تيارات الغزو ، ما تستريح إليه فى دين الفطرة المصدق لما بين يديه من الرسالات الدينية . وكان المبدأ الإسلامى فى إقرار حرية العقيدة وحظر الإكراه فى الدين ، هو الذى أطلقهم من موقف التحدى والرفض ، إذ ترك لهم فرصة الاختيار وحق التفكير دون قسر أو إرغام ، وهيأ لهم الفتح لدين يحترم حرية العبادة ويكفل للإنسان حقوق إنسانيته .

وثابت تاريخياً أن الصراع المذهبى الدينى بين روما ومصر قد وصل قبل الإسلام إلى حافة الحرب ، ثم إلى عزلة صارمة من رجال الدين المصريين الذين لاذوا بأديرتهم فى الصعيد وصحراء سينا ، رفضاً لسياسة روما فى فرض مذهبها الدينى على الشعب المصرى بالقسر والإكراه والاضطهاد . . .

وثابتٌ تاريخياً كذلك ، أن الرومان الذين حملوا المسيحية إلى الشمال الإفريقى ، عجزوا عن القضاء على الوثنية ، فظلت الآلهة المعبودة موضع تقديس ، وبقى لكهنة « بعل دوخ » بوجه خاص ، نفوذ مسيطر دفع الحكام الرومان إلى مطاردتهم وصلبهم فى القرن الثانى للميلاد . وإلى القرنين الرابع والخامس ، كانت المسيحية ما تزال تلقى مقاومة عنيفة من الوثنية ، بل إن الإسلام حين دخل المغرب ، وجد الوثنية فى جبال الريف وعمارة . ولا شك فى أن الصراع المذهبى للطوائف المسيحية قد قوّى نفوذ الكهنة ، الذين لبثوا يمارسون سلطانهم العتيد على القبائل إلى المرحلة الأولى من الفتح الإسلامى ، فكانوا هم الذين تصدوا لمقاومة الكتائب الوافدة من الشرق ، إلى أن استقر الإسلام فى المنطقة ، وتتابعت القرون فلم تزده إلا رسوخاً وثباتاً ...

* * *

والسودان وإن تأخر دخوله رسمياً فى الدولة الإسلامية إلى القرن العاشر

الحجرى ، لم يلبث طويلا حتى غلب عليه المناخ الدينى ، وتوهجت نار القرآن فى البوادى والنجوع . وازدهر التصوف تأثراً بطبيعة البيئة ومزاج الإقليم ، فكان لمشايخ الطرق سلطان لا يدانيه سلطان الملوك والحكام . . .

ومنذ دخل الإسلام هذا القطر الشقيق ، أخذ لواء القيادة للأحداث ؛ فكان العاملُ الدينى هو الموجه الأكبر لتاريخه شعباً ودولة .

وفى كل هذا ، لم يكن اتصال الشخصية الإسلامية العربية بالماضى الأجنبى القريب المرفوض من هذه الشعوب ، وإنما كان الاتصال بماضيها الأصيل العريق عبر فجوة من الزمن مداها ألف عام ، رفضت فيه قوميات الغزاة وثقافاتهم وعقائدهم ، إلا القدر القليل الذى فرضه طول المدى وأساغته شعوب المنطقة ، فتمثلته بروحها ومزاجها . وأقرب مثل لذلك مدرسة الإسكندرية التى هاجر إليها الفكر اليونانى بعد انطفائه فى أثينا ، فلم تقبله كما هو ، ولم تأخذه نقلا ، وإنما أعطته روح الشرق ومزاجه وصفاءه فصيرته هيلنيسيا بعد أن كان هيلينياً[1] .

* * *

ومن قصور الإدراك ، أن نتصور أن الشخصية الجديدة للأمة الإسلامية العربية ، هى نفس الشخصية العربية التى خرجت من الجزيرة العربية مع كتائب الفتح ، بكل ملامحها وسماتها وألوانها وظلالها وميراثها . فليس من طبيعة الأشياء أن تتعرض شخصية العربى لكل التيارات الجديدة الطارئة دون أن تنفعل بها .

كما ليس من المنطق أيضاً ، أن تتلقى الشعوب المتعربة جديدَها الوافد وقد انقطع كل ما يربطها بقديمها العريق الذى ناضلت عنه ضد كل الغزاة الذين تسلطوا عليها قرونا قبل الإسلام ، فرفضت أن تندمج فيهم أو تسالمهم .

---

(١) نجيب بلدى : مدرسة الإسكندرية .

بتار : فتح العرب لمصر — ص ٥٥ وما بعدها ، الترجمة العربية لفريد أبو حديد ط ١٩٤٦ .

وإنما الصحيح هو أن شعوب المنطقة حملت معها تراثها الفكرى والحضارى ، واندمجت به فى جديدها الإسلامى العربى ؛ فنشأ عن الامتزاج والانصهار شخصية إسلامية الجوهر عربية اللسان ، وصبت كل الروافد فى المجرى المشترك لأمة موحدة ، مع ظواهر مميزة لكل قطر منها ، جاءت من طبيعة البيئة والسلالة ، والميراث المادى والمعنوى . .

من هنا لا نرى وجهاً لما كثر فيه الجدل على قوميتنا بين أصولها القديمة . فرعونية أو بربرية أو فينيقية أو أشورية وبابلية أو زنجية . سامية أو حامية أو آرية ، وبين قوميتها الجامعة الموحدة ، منذ أربعة عشر قرناً .

وهو جدل تورط فيه عدد من المؤرخين الغربيين ، فتعثر منطقهم . مثل « جوستاف لوبون » الذى قال فى كتابه حضارة العرب :

« وسوف ترى أن المصريين الذين تمردوا على حضارة الفرس والإغريق والرومان ولغاتهم ، انتحلوا لغة العرب ودينهم وتمدينهم (؟!) وأن مصر غدت بذلك أشد البلاد التى دخلت فى دين محمد عروبة . وأنه مع كثرة توالد المصريين والعرب الفاتحين وظهور مثال جديد اختلف عن الأصل بعد جيلين أو ثلاثة ، أدى تفوق نسبة المصريين العددية . من حيث النتيجة ، إلى تقلص أثر الدم العربى فى المصريين ، وأن الفلاح المصرى العتيد . العربى بدينه ولغته . رجع ابناً لقدماء المصريين وصورة حية لهم ! »[1] .

وذلك عجيب من خلل المنطق وفحش الخطأ . يرفضه قانون الحياة وتأباه سنن الاجتماع . بل يرفضه المنطق الفطرى الذى لا يمكن أن يتصور أن كائناً بشرياً يحيا قروناً . دون أن يتأثر بدماء اختلطت بدمه ، ولغة أعطته ذوقها ومزاجها وحسها . ودين اعتنقه وآمن به .

---

(١) ص ٨٠ وما بعدها ، من الترجمة العربية لعادل زعيتر — ط ٢ حلبى .

ولست أدرى فيم الجدل فى قوميتنا وقد مضى على عروبتنا الصريحة المشتركة أربعة عشر قرناً ، ولا أحد يسأل الأمريكيين اليوم عن أنسابهم القريبة الموزعة بين شتى الجنسيات والقوميات وأخلاط السلالات . ؟!

وقد انساق عدد من الكتاب العرب وراء هذا المنطق الشاذ . فمضى بعضهم يجحد ماضينا كله ، ومضى آخرون منهم يجحدون واقعنا الحى ليردونا إلى أصول متناهية فى القدم .

ولهم جميعاً نقول : الجيل الأول بعد الفتح مباشرة ، امتزجت فيه الدماء العربية بالدماء الموروثة ، مهما يختلف عليها علماء الأجناس والسلالات . ثم تتابعت الأجيال والتعرب يزداد عمقاً ورسوخاً وتأصلا ، وعناصر الشخصية القومية لشعوب الوطن العربى الإسلامى تنصهر فى بوتقة البيئة المادية والمعنوية ، بحيث يتعذر على أدق جهاز علمى أن يميز ما فى عروقنا من الدم العربى الصريح أو الدم القديم الموروث .

وأيًّا ما تختلف أصولنا القديمة ، فنحن عرب مستعربة ، رسخت فينا العربية على تتابع أجيال طوال ، منذ أظلنا لواء الإسلام وجمعنا أمة واحدة .

obeikandl.com

مدخل لغوي

في العصر الجاهلي ، كانت مخالطة لغوية بين قبائل العرب وشعوب المنطقة .

لكن حركة الفتوح الكبرى ، كانت المنطلق إلى الوحدة اللغوية ، في اللسان المشترك لشعوب هذا الوطن الواحد ، منذ هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن الكريم ، كتاب دينها .

obeikandl.com

obeikandl.com

وفى اللغة بوجه خاص ، نعرف أنه قد كان هناك اتصال لغوى قديم بين العربية ولغات الشعوب التى تعربت بعد الإسلام .

ولسنا نوغل بهذا القديم إلى الأصول البعيدة لما يُعرف باللغات السامية والحامية والآرية ، وإنما حسبنا أن نشير إلى المعروف من صلات العربية باللغات التى خالطتها فى الجاهلية[1] .

* * *

كانت الإمارتان العربيتان فى الحيرة والشام . على اتصال سياسى وحضارى وثقافى بالفرس والروم . ومعروف من تاريخ الأدب الجاهلى — وهو من أهم المصادر اللغوية للفصحى — أن أمراء المناذرة والغساسنة كان لهم شعراء عرب مختصون بهم ، وإلى هؤلاء الأمراء كانت رحلة الشعراء من الجزيرة العربية ، فمنهم من كانوا يؤثرون المقام فى بلاط الأمراء كالنابغة الذبيانى ، ومنهم من كان يكتفى بالوفود على الحيرة وغسان ابتغاء الصلة كالأعشى ، أو لعرض

---

(١) يركز المؤرخ اليهودى «إسرائيل ولفنسون» فى محاضراته بالجامعة المصرية عن (تاريخ اللغات السامية) كل اهتمامه فى تتبع أثر العبرية فى لغات العالم القديم الذى تعربت شعوبه وتعرب لسانه بعد الإسلام . والفكرة تبدو مسيطرة عليه تماماً ، على رغم محاولاته الملتوية فى مناقشة بعض آراء اللغويين من المستشرقين ، لإضفاء روح العلم والنزاهة ، على ما يثبت من فكرته .

وقد نقلنا فى المدخل التاريخى ، كيف انطلق ولفنسون من فكرة السامية — التى بذرها يهود العصور الوسطى فى الحقل اللغوى والسلالى لشعوب المنطقة — إلى حد ادعاء أن جزيرة العرب كانت الموطن الأصل لليهود ، وأنهم هاجروا منها بلغتهم العبرية وأحدثت هجرتهم أثراً بعيداً فى التاريخ العام .

وهو يضيف إلى هذا كله ، أن الكنعانيين كان لهم التأثير الهام على العالم المتمدين ، علمياً وصناعياً ودينياً (ص٥٣) وأن الكنعانية والعبرية ليستا فى الحقيقة سوى لغة واحدة (ص٥٥) وقد انقسمت جموعهم إلى كتلتين كونت الأولى منهما الممالك الكنعانية فى سورية ، وكونت ثانيتهما دول الكنعانيين ومستعمراتهم فى جزر البحر الأبيض وفى شمال إفريقية (ص ٥٥) .

ومنطقه فى كل هذا ، يقوم على دعاوى وفروض لا تحتمل مناقشة علمية ولا تثبت لنظرة تاريخية فاحصة .

قضايا قبائلهم كالحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم ، ومنهم من كانت الظروف تسعى به إلى الأمراء ، كطرفة بن العبد .

وهؤلاء الذين ذكرناهم ، على سبيل المثال ، معدودون من فحول الشعراء الجاهليين . وكلهم من أصحاب المعلقات ، وقد كانت دواوينهم من المصادر الأولى لجمع معجم ألفاظ العربية ووضع قواعدها فى النحو والصرف والعروض والبلاغة .

وعن هذا الطريق ، اتصلت عربية الجزيرة بلغات الشام والعراق ، وقد صارا بعد الإسلام ، من أكبر أقطار الوطن العربى .

وعرب الحجاز ، وفيهم لغة قريش ، كانوا على اتصال موسمى بالشعوب المجاورة جنوباً وشمالا فى رحلتى الشتاء والصيف ، وبمصر والسودان عن طريق سينا والبحر الأحمر . كما كان لعرب الجنوب صلاتهم التجارية ومخالطتهم اللغوية للشعوب الواقعة على الساحل الشرقى والشمالى لإفريقية . والساحل الجنوبى لآسيا ، عبر البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب المفضى إلى بحر الهند .

ثم كان هناك بين قبائل العرب نفسها ، اتصال حيوى مستمر ، لعل أقواه ما كان فى الحجاز حيث العاصمة الدينية والاقتصادية والأدبية الكبرى لبلاد العرب . وملتقى قبائلهم فى مواسم الحج التى كانت فى الوقت نفسه مواسم تجارية وأدبية .

ولا أحاول هنا أن أتتبع أسماء الذين ذكرت مصادرنا التاريخية للعصر الجاهلى أنهم كانوا يعرفون إلى جانب لغتهم العربية لغة أو أكثر من لغات الشعوب التى كان لها بالجزيرة العربية اتصال . إذ مهما يكن عدد هؤلاء فإن كتب التاريخ لا تذكر عادة إلا ذوى الشهرة منهم كالشعراء والمترجمين الرسميين كعدى بن زيد ولقيط بن معمر ، ومن اشتهروا بالقراءة فى الكتب الدينية كورقة بن نوفل ، أو اكتتبوا قصص الشعوب وأساطيرها مثل سويد بن الصامت[1] .

---

(١) أخبارهم مبسوطة فى (السيرة النبوية لابن هشام وتاريخ الطبرى ، عصر المبعث) واقرأ الدكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) ص ٤١ وما بعدها .

وكذلك الأمر فى عصر المبعث ، قبل حركة الفتوح : تقتصر كتب التاريخ عادة على ذكر ذوى المكانة ، مثل كُتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين كانوا يكتبون له إلى الملوك ويترجمون رسائلهم من اللغات الفارسية أو القبطية أو الحبشية . وتجد أسماءهم فى (التنبيه والإشراف) للمسعودى .

فالذى لاشك فيه ، أن المسألة فى هذا لم تقف عند حالات فردية لأشخاص معروفين بأسمائهم ، بل تجاوزتها إلى النطاق العام ، فكان هناك عرب غير هؤلاء يعرفون لغة أو أخرى من لغات الشعوب التى كانوا يتعاملون معها . كما كان هناك من أهل هذه الشعوب من يعرفون العربية .

ثم كانت هناك مخالطة لغوية بين هذه الألسن ، تأخذ طريقها من حيث يريد أهلها أو لا يريدون ، وترون أثرها فيما دخل معجمَ العربية القديم ، من ألفاظ دخيلة أو معربة . حاول بعض علماء العربية استقصاءها وردها إلى أصولها من لغات غير العرب ، كأبى منصور الجواليقى فى (المعرب) والشهاب الخفاجى فى (شفاء الغليل فيما فى ألفاظ العربية من الدخيل) وجلال الدين السيوطى فى الباب الذى عقده فى (المزهر) لما أخذت العربية من اللغات الفارسية والسريانية والعبرية والرومية والحبشية والقبطية .

ونقول هنا أيضاً ، إن الأمر لا يقتصر على ألفاظ بعينها يمكن تحديدها وحصرها ، وإنما كانت مناطقُ اتصال العرب بالأمم المجاورة ، مجالا لتأثير لغوى عام . يكفى دليلا عليه ما نقرأ من حرص علماء اللغة ، فيما جمعوا من شواهد الفصحى ، على أن يتحاشوا قدر الإمكان ، الاستشهادَ بالمروى من شعر قبائل معينة ، لمخالطتها أمماً أخرى . وقد ذكرها « ابن جنى » فى (الخصائص) و « السيوطى » فى (المزهر)[1] وعدوا منها بوجه خاص :

— لخم وجذام : لمجاورتهم أهل مصر والقبط .

— الحيرة : لمخالطتهم أهل فارس .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ سعيد الأفغانى فى (الاستشهاد فى اللغة) ط دمشق .

قضاعة وغسان وإياد : لمجاورتهم أهل الشام .

تغلب : كانوا بالجزيرة مجاورين للروم .

بكر : لمجاورتهم للقبط والفرس .

عبد القيس وأزد عمان : كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس .

اليمن : لمخالطتهم للهند والحبشة .

كما حاول علماء اللغة فى عصر التدوين أن يتجنبوا «بنى حنيفة ، وسكان اليمامة ، وأهل الطائف وحاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب ؛ قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »[1] .

والمحاولة وحدها تكشف عن مدى المخالطة اللغوية وما تركت من أثر فى القبائل العربية الصميمة .

ومهما يكن من جدوى هذه المحاولة التى شهدها عصر التدوين ، فالذى لا شك فيه هو أنها ما كانت لتستطيع أن تُحكِم الحصارَ على الحياة اللغوية بعد الذى كان من قديم مجاورة ومخالطة . والحياة اللغوية لم تكن محكومة بهؤلاء اللغويين فحسب ، وإنما كانت تحكمها قبل كل شىء ، عوامل اجتماعية واقتصادية ودينية ، لم يفلت منها فصحاء العرب فى المناطق المعتمدة من اللغويين ، إن لم يكن بطريق مباشرة ، فعن طريق الاتصال بالقبائل العربية التى خالطت الأمم المجاورة .

وحركة التدوين نفسها ، لم تصبر على قيود علماء اللغة الأقدمين لحصر مناطق الرواية والاستشهاد فى قبائل معينة . فالطبقة الأولى من الرواة الذين جمعوا تراث العربية ، لم ينبذوا تراث الشعراء الذين عاشوا فى غير المناطق المعتمدة من علماء اللغة .

خذوا مثلا : « عدى بن زيد اللخمى » الذى أتقن الفارسية وترجم

---

(١) السيوطى : المزهر ٢١٢ وما بعدها ط الحلبى .

لكسرى وللنعمان . كان من الشعراء الذين ضرب عليهم علماء اللغة أشد الحصار . قال فيه الأصمعى فى (فحولة الشعراء) :

« عدى ، وأبو دؤاد الأيادى ، لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست بنجدية » .

ونقل الموزبانى فى (الموشح) رواية عن المفضل الضبى أنه قال : « كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة فكان عدى بن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها فى شعره».

وقال ابن سلام فى (طبقات الشعراء) : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه » .

وقال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : « وعلماؤنا لا يرون شعره حجة ، والعرب لا تروى شعره لأن ألفاظه ليست بنجدية . وكان نصرانيًّا من عباد الحيرة . قد قرأ الكتب » .

ومع كل هذا ، تجد ديوان عدى قد جُمع ودُوِّن . وكانت هناك نسخ منه فى عصر أبى العلاء . إحداها فى دار العلم ببغداد ، التمسها « أبو العلاء » فى رحلته المشهورة إلى مدينة السلام . قال فى رسالة الغفران :

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافيّة عدى ابن زيد التى أولها :

بكر العاذلات فى غلس الصبح يعاتبنه أمـا تستفيق
ودعا بالصبوح فجراً فجاءت قينة فى يمينها إبريق

وزعم الوراق أن ابن حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة وطُلبت فى نسخ من ديوان عدى فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل استر اباذ يقرأ هذه القافية فى ديوان العبادى . ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم »[1] .

---

(١) رسالة الغفران – تحقيق عائشة عبد الرحمن ، ص ١٤٧ ، ط ٥ ذخائر .

و« أبو العلاء » قد احتفى بعدى بن زيد فى جنة الغفران . وأنشد ثلاث قصائد من روائع شعره . لا نجدها كاملة فى سائر المراجع الأخرى . و« ابن سلام » نفسه قد ذكر فى طبقات الشعراء لعدى بن زيد أربع قصائد جياد قال : إنهن « لا يفوقهن شعر » .

وجمع أبو الفرج الأصفهانى قدراً ذا بال من شعر عدى بن زيد . فى ترجمته له بكتاب الأغانى . وقلما يخلو كتاب من أمهات مراجعنا الأدبية ، من مختارات من قصائد عدى وأبياته . بعد أن قيل فيه : « والعرب لا تروى شعره ! » .

بل إن معاجم اللغة ، تأتى بالشواهد من شعره دون تجريح لها أو تهوين منها . وكأن أصحاب هذه المعاجم لم يلتفتوا إلى ما قال « ابن قتيبة » فيه :

« وعلماؤنا لا يرون شعره حجة » !

وكذلك رُويت قصائد أبى دؤاد ولقيط بن معمر الإياديين ، وتعرفون مكانة « طرفة والأعشى والحارث بن حلزة » وقد كانوا من قبيلة بكر المبعدة عن الاستشهاد لمجاورتها للفرس . كما تعرفون مكانة « مهلهل وعمرو بن كلثوم » وقد كانا من تغلب ، ومنزلها بالجزيرة من مناطق المخالطة .

وأيّا ما كان جهد اللغويين القدامى فى تحاشى الأخذ من تراث هذه القبيلة أو تلك . ورفض اعتماد شعرها فى الشواهد اللغوية . فالذى يعرفه التاريخ هو أن المخالطة اللغوية كانت واقعاً لا مفر منه ، وأن هذه القبائل المتجنّبة ، كانت تخالط القبائل العربية فى المناطق المعتمدة حجةً فى الفصاحة . مما اضطر اللغويين إلى الاعتراف بالأمر الواقع فى تداخل لغات العرب ، ومنهم من رأى أن هذه اللغات كلها حجة ! (١) .

* * *

على أن هذه المخالطة . على أبعد مدى يمكن تصورُه . لا يجوز أن تُحمل

---

(١) السيوطى : المزهر فى علوم اللغة . ص ٢٥٧ ، ٢٦٣ – ط الحلبى .

على الخلط الذى لا تتميز فيه لغة عن أخرى ، أو تُطمس معالم الشخصية اللغوية فى اللسان القومى لشعب أو آخر . كما تصور بعض الدارسين المحدثين[١].

كل ما فى الأمر أن الاتصال التجارى والسياسى بين شعوب المنطقة ، كان معه اتصال فكرى ولغوى تحكمه مؤثرات حيوية أخذاً وإعطاء ، فى حدود ما تقضى به ضرورات الحوار والتعامل ، على أى وجه كان .

وتضبطه فى الوقت نفسه ، عن قصد أو غير قصد ؛ عواملُ مضادة من حرص الشعوب على صيانة قومياتها ، ووعيها لما فى التفريط فى اللسان من مسخ للشخصية القومية وتفريط فى الذات .

* * *

وسترون فيما نتابع من سير الحياة بلغتنا ، أن العربية اضطرت فى عصر الفتوح إلى أن تتصل بلغات الأقطار التى وصل إليها مدُّ الفتح فى القرن الأول ، فاحتاجت إلى مترجمين ينقلون عنها وإليها ، فى المدونات والوثائق الرسمية ، وفى العقود والمعاملات التجارية ، وفى التفاهم الضرورى بين العرب وأهل الأقطار التى فتحوها وهاجروا إليها ، ريثما تمت حركة التعرب التى استغرقت جيلا أو أكثر بعد أن دخلت شعوب المنطقة فى الإسلام . فكان المنطلق إلى الوحدة اللغوية فى اللسان المشترك لشعوب هذا الوطن الواحد ، مع ملامح مميزة تفرضها البيئة المحلية بخصائصها الجغرافية والاجتماعية ... .

---

(١) انظر مقدمة إبراهيم الابيارى لكتاب (المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب) لابن أبى السرور الصديقى — نشر وزارة الثقافة بمصر .

وكتاب إسرائيل ولفنسون (تاريخ اللغات السامية) ص ١٦٨ .